4. قبائل المابا:

قبائل المابا تحمل بين طيات تاريخها قصصاً تعكس تعقيد الهوية وتداخل الثقافات في منطقة بحيرة تشاد. فبينما يرى بعض الباحثين أن أصولهم عربية، تستند هذه الرؤية إلى ارتباطها الوثيق بالقبائل العربية التي استقرت في المنطقة وخلقت معها روابط قوية،و في المقابل، يعتقد فريق آخر أن المابا ينحدرون من جذور أفريقية أصلية، تحديدا من منطقة ودّاي، حيث كان لهم حضور قوي وتاريخ طويل قبل اندماجهم مع القبائل العربية[1]

ويرى الباحث ان هذه التداخلات لم تكن مجرد مصادفة، بل نتجت عن حركة الهجرات والتفاعلات الاجتماعية التي جعلت من المابا قبيلة ذات ملامح فريدة، تمزج بين الإرث العربي والإفريقي.

وبعد عبد الكريم جامع، استمرت ذريته في حكم مملكة ودّاي، رغم المواجهات والصراعات التي شهدتها المنطقة، لا سيما مع قبائل عربية أخرى، وهذه الحروب لم تكن فقط معارك على السلطة، بل كانت صراعات من أجل بقاء هوية مملكة ودّاي التي شكلت معقل المابا وأساس قوتهم في المنطقة. إن استمرار حكم أسرته يعكس مدى تأثيرهم وقدرتهم على الحفاظ على استقرار وازدهار المملكة في وجه التحديات، وبهذا السياق، تظهر قبائل المابا كشاهد حي على تاريخ معقد من الاختلاط والتفاعل، حيث لم تعد الهوية محصورة في أصل واحد، بل هي نسيج غني من التقاليد والأصول المتنوعة، وهذه الخلفية تجعل من المابا جزءًا لا يتجزأ من تاريخ وحضارة بحيرة تشاد، وتبرز أهمية فهمهم ليس فقط كقبيلة بل كحاضنة لثقافات متعددة امتزجت لتصنع قصة فريدة في قلب إفريقيا. [2]

---

[1]محمد صالح أيوب: مجتمعات وسط إفريقيا بين الثقافة العربية والفرنكفونية، الجمعية القومية للبحث العلمي- مركز البحوث والدراسات الإفريقية سبها 1992م،ص 23.

1) محمد صالح أيوب: مجتمعات وسط إفريقيا بين الثقافة العربية والفرنكفونية، الجمعية القومية للبحث العلمي- مركز البحوث والدراسات الإفريقية سبها 1992م،ص 23.

وأن المابا أنفسهم ينتمون إلى الأسرة العباسية التي وفدت الى السودان الاوسط بعد نكبة بغداد عام 1258م وسقوط الدولة العباسية على يد التتار بقيادة هولاكو خان بتاريخ 9 صفر 656هـ الموافق 10 فبراير 1258م ، عند ما فر فريق من العباسيين ودخلوا مصر وأقاموا هناك مدة من الزمن، قد تفرق أفراد تلك الأسرة وأخذ كل منهم وجهته، فذهب أحدهم إلى الحجاز واستقر هناك بينما خرج أحد أبنائه ويدعى صالح إلى سنار بالسودان وكان صالح أو صليح هذا هو الذي سميت المنطقة باسمه بدار صليح .والجدير بالذكر أن صليح هذا قد كان فقيهاً عالماً وعند ما رأى الفساد قد انتشر في أوساط الشعب، بدأ في مواصلة دعوته حتى وصل إلى جبل أبي سنون""،شمال كردفان بالسودان ومنطقة ودّاي شرق تشاد، وكان سكان هذه المنطقة يدينون بالوثنية فبدأ يدعوهم إلى الاسلام فأسلم على يده الكثير ، ثم أصبح رئيساً للمنطقة بأكملها ونشط في الدعوة إلى الحق ضد المشركين، كما قام ببناء مساجد وخلاوي واتخذ "وارا" التي تقع شرق مدينة ابشة عاصمة له.[3]

في كتابه "رحلة إلى دار ودّاي"، وصف الرحالة محمد بن عمر التونسي قبائل المابا بكلمات تحمل في طياتها تقديرًا عميقًا لقوتهم ومكانتهم في حوض بحيرة تشاد. يقول محمد بن عمر إن "أهل دار ودّاي أعظم وأقوى القبائل الإسلامية في حوض بحيرة تشاد"، مشيرًا بذلك إلى الهيمنة والتأثير الكبير الذي تمتع به شعب المابا في تلك المنطقة الحيوية. هذه العبارة ليست مجرد وصف عابر، بل تعكس واقعًا تاريخيًا يبرز قوة المابا العسكرية والاجتماعية، وكذلك دورهم الأساسي في نشر الإسلام وتعزيز الاستقرار في حوض بحيرة تشاد. [3]

ويرى الباحث ان هذه الرحلة التي قام بها محمد بن عمر التونسي كانت نافذة على عالم لم يكن معروفًا جيدًا خارج حدود أفريقيا، وكانت شهادته مهمة لأنها جمعت بين الملاحظة الدقيقة والانطباع الشخصي. فقد رأى في المابا شعبًا منظمًا ومتماسكًا، يتمتع بقدرات قيادية واضحة

وقدرة على حماية أرضهم ومصالحهم. هذه القوة التي تمتعت بها هذه القبيلة لم تكن مجرد قوة عسكرية فحسب، بل شملت أيضًا البعد الاجتماعي والثقافي الذي منح المابا مكانة بارزة بين القبائل الأخرى في المنطقة.[4]

وتجدر الاشارة الى ان تجربة المابا في إدارة شؤون مملكتهم، والحفاظ على هوية إسلامية وسط بيئة متعددة الثقافات والأعراق، جعلت منهم نموذجًا فريدًا في المنطقة. كما ان قوتهم وتماسكهم جسدا قدرة على مواجهة التحديات المختلفة، من غزوات متكررة إلى الضغوط السياسية والاجتماعية. ولذلك، فإن وصف محمد بن عمر التونسي لا يختزلهم في مجرد قبيلة عادية، بل يسلط الضوء على أمة متكاملة ذات إرث غني ومكانة بارزة في تاريخ حوض بحيرة تشاد، مما يجعلهم أحد الأعمدة الرئيسية التي قامت عليها الحضارة في تلك البقعة من أفريقيا".

5/ قبائل الزغاوة:

قبيلة الزغاوة تعد واحدة من القبائل العريقة التي تركت بصمتها الواضحة في نسيج حوض بحيرة تشاد، وتحمل تسميتهم في طياتها تاريخًا عميقًا ينبع من لغات وثقافات متعددة. يفسر بعض الباحثين كلمة "زغاوة" بأنها مشتقة من كلمة "سك" أو "سغ"، والتي تعني في لغة نبلاء الطوارق "معسكر" أو "مضرب خيام" أو "مخيم". هذه التسمية تعكس نمط حياة الزغاوة القديم المرتبط بالتنقل والترحال، حيث كانت الخيام والمعسكرات رمزًا لأسلوب معيشتهم البدوية أو شبه البدوية في الصحراء والشبه الصحراوية.

يضاف إلى ذلك مقطع "awa" الذي يدل على الجمع، فيصبح الاسم الكامل دلالة على الجماعة أو القبيلة التي تعيش في تجمعات متنقلة أو معسكرات. كما تشير قبائل الكانوري، التي تعد من

---

1) محمد صالح أيوب: مجتمعات وسط إفريقيا بين الثقافة العربية والفرنكفونية، الجمعية القومية للبحث العلمي- مركز البحوث والدراسات الإفريقية سبها 1992م،ص 23.
2) المرجع السابق ص24

الشعوب المهمة في المنطقة، إلى الزغاوة باسم "أغنا" (Aghna) في لغتهم الخاصة، مما يبرز التنوع اللغوي والعرقي في حوض بحيرة تشاد، وكذلك التداخل والتفاعل بين هذه القبائل.[5]

هذا التداخل اللغوي يعكس تاريخًا مشتركًا من التعايش والاختلاط، حيث لم تكن الحدود بين هذه المجموعات السكانية مجرد خطوط جغرافية، بل كانت روابط اجتماعية وثقافية تتمازج فيها العادات واللغات. الزغاوة، بتسميتهم وبما تعنيه من معسكرات وتجمعات، كانوا جزءًا من هذا النسيج الحيوي، يحملون تراثًا غنيًا ومساهمات بارزة في تاريخ المنطقة.

و يمكن القول إن كلمة "زغاوة" ليست مجرد اسم قبيلة، بل رمز لحياة التنقل والتجمع التي شكلت جزءًا أساسيًا من هوية سكان حوض بحيرة تشاد، كما تؤكد على العلاقة الوثيقة بين اللغة والثقافة والبيئة التي عاشوا فيها. [6] والمعروف ان قبائل الزغاوة قد وفدت من الشرق كغيرها من القبائل التي وفدت من الغرب، واندمجت مع الوطنيين من سكان السودان الأوسط ،اختلف المؤرخون حول أصول قبائل الزغاوة وتحديد فترة وصولهم إلى تشاد، بحيث قال بعضهم أنهم ينتسبون إلى القبائل العربية،وهذا الرأي ليس له دليل قوي يدعمه، ثم أن الزغاوة لهم لهجة يتحدثون بها وهي قريبة من لهجة التبو، ولسانهم بعيد كل البعد عن مخارج اللغة العربية[7]. وقد قال بعض المستشرقين إن الزغاوة ينحدرون من أصل بربري وذلك للتشابه في العادات والتقاليد، حيث أن الزغاوة يميلون إلى العيش في الإقليم الصحراوي، ويرعون الإبل ، ويقطنون الإقليم الشمالي المتاخم لبلاد السودان ووادي النيل وإقليم دارفور، فقد أورد الدكتور فضل كلود نقلا عن المسعودي أن مملكة الزغاوة واسعة وكبيرة وقامت في القرن التاسع الميلادي .

ويذكر جوستاف نيختيقال في كتابه رحلة الي وداي أن قبيلة الزغاوة ترجع في أصولها إلى الشرق، شأنها في ذلك شأن العديد من القبائل العربية التي وفدت إلى منطقة بحيرة تشاد هذا

---

[5])فضل كلود الدكو: الثقافة الإسلامية في تشاد ، العصر الذهبي لامبراطوريةكانم منشورات كلية الدعوة الإسلامية 1998م ص 133

[6])عبدالرحمن زكي : الاسلام والمسلون في غرب افريقيا ط1 , مطبعة يوسف ، مصر 1986م ص62

[7]المرجع السابق ص 63 -65

الرأي يدعم الفرضية القائلة بتأثير الحراك السكاني القادم من الشرق في تشكيل النسيج العرقي والثقافي لحوض البحيرة. ويُنسَب إلى الزغاوة دور مركزي في تأسيس مملكة كانم خلال القرن الثامن الميلادي، مما يضفي عليهم مكانة تاريخية بارزة في تطور الأنظمة السياسية المبكرة في المنطقة،ويُطلق على ملك الزغاوة لقب "اينا " وتعني السلطان، وهو لقب يدل على تقاليد الحكم المتوارثة لديهم، ويُنسب إلى هذه القبيلة "زغاوي" نسبة إلى أصلهم وكيانهم المميز. وقد ورد في بعض الروايات أن ملك الزغاوة كان يتناول الشراب مع أصحابه في مجلسه، وكان شرابه التقليدي يُحضّر من الذرة ويُخلط بالعسل، وهو ما يعكس جانبًا من العادات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة بينهم، وارتباطهم بالمحاصيل المحلية والمنتجات الطبيعية.

أما عن مظهر الملك وزيّه، فقد كان يرتدي لباسًا من الصوف، يتكوّن من سروال رقيق عليه وشاح، مما يُبرز السمات المعيشية والبيئية التي أثّرت في طرازهم الثقافي، حيث يتلاءم هذا النوع من اللباس مع طبيعة المناخ شبه الصحراوي، ويعبّر عن نمط الحياة البسيط والمعتاد لدى تلك المجتمعات،وتُظهر هذه التفاصيل أن الزغاوة لم يكونوا مجرد قبيلة تقليدية، بل جماعة ذات هيكل سياسي وتنظيم اجتماعي واضح، وكان لهم مساهمات مهمة في مسيرة بناء الممالك الإسلامية المبكرة في إفريقيا، وخاصة في إقليم كانم، مما يجعلهم جزءًا محوريًا من التاريخ الإسلامي الإفريقي في حوض بحيرة تشاد. [8]

في القرن الثامن عشر الميلادي، تعرّضت قبيلة الزغاوة لهجرات قادمة من مجموعتين بارزتين في المنطقة: الطوارق الملثمون وهم شعب من الرحلذوو أصول امازيغية بربرية يتخذ من الصجراء الافريقية الكبرى الممتدة بين ليبيا والجزائر والنيجر وبركينا فاسو ووصفهم ابن خلدون في مقدمته بانهم : اوفر قبائل البربر ولا يكاد قطر من الأقطار يخلو من بطن من بطونهم من جبل اوسهل، والتبو سكان هضبة تبستي. لم تكن هذه الهجرات شاملة بمعنى الاجتياح السكاني الكامل،

---

[8]جوستاف نيختيغال . تاريخ وداي , تاريخوداي،ترجمةنادياكركديوهنريكوردي،مركزالمدنيالثقافيللطابعةوالنشر،انجمينا، 2005.ص349

بل اتخذت طابعًا تدريجيًا واستقرائيًا، حيث قامت تلك المجموعات ببسط نفوذها السياسي والاجتماعي على المناطق التي يسكنها الزغاوة، حتى تمكنت من إخضاعهم لسلطانها. هذا النوع من السيطرة لم يكن عبر الحرب وحدها، بل عبر التغلغل في مفاصل الحكم والإدارة، مما أدى إلى تغيّرات تدريجية في بنية الحكم والعلاقات القبلية في تلك المناطق.[(9)]

أما من الناحية الدينية، فقد دخل الزغاوة في الإسلام حوالي القرن الحادي عشر الميلادي، وهي فترة شهدت توسعًا ملحوظًا في نشاط الدعاة والعلماء والتجار المسلمين في إفريقيا جنوب الصحراء، وقد ساعدت الروابط التجارية، والطرق القوافلية، واحتكاك الزغاوة بالقبائل الإسلامية المجاورة في تسهيل هذا الانتقال الحضاري والديني. ويدلّ هذا التحول على قدرة الزغاوة على التفاعل مع محيطهم والانخراط في الدين الجديد، مما أضفى على هويتهم بعدًا دينيًا جديدًا ساهم في إعادة تشكيل ملامح ثقافتهم ومكانتهم ضمن النسيج الإسلامي في حوض بحيرة تشاد.

وبذلك، يُمكن القول إن الزغاوة، على الرغم من تعرضهم لضغوط خارجية سياسية وهجرات متتالية، استطاعوا أن يحافظوا على كيانهم، وأن يندمجوا في السياق الإسلامي العام، مما ساعدهم على البقاء كقوة فاعلة في التاريخ الإقليمي للمنطقة ،وتنتشر بعض المجموعات الفقيرة منهم في الجزء الشمالي من إقليم وداي المتاخم لإقليم دارفور ، وهؤلاء زغاوة كوبي وهنالك ، زغاوة الدور أو زغاوة كايت قاوكالايو، أو قلا،الذين ينحدرون من أصل بديات وهناك زغاوة أنكا، وام كمليت وهؤلاء امتزجوا مع العرب الذين هاجروا منذ قرون وسكنوا دار فور وسط قبائل الرزيقات، ويمكن التفريق بينهم من خلال التركيب الجسماني أو التركيب الاجتماعي[(10)].

---

(9)محمد بن عمر التونسي . سير الأذهان لبلاد المغرب والسودان – تحقيق خليل عساكر ومصطفي محمد الهيئة المصرية للكتاب 1972م القاهرة، ص101

1)جوستاف نيختيغال . تاريخ وداي , تاريخوداي،ترجمةنادياكركديو هنريكوردي،مركز المدنياالثقافيللطابعةوالنشر،انجمينا، 2005.ص349